تاريخ الاستلام: 2016/08/06- تاريخ التحكيم: 2016 /11/16 -تاريخ النشر 2017/06/02

# المرأة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)

## قراءة في الحضور العسكري والسياسي

أ.د. مفتاح خلفات، أ.حسيبة عمروش

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر

❀❀❀❀❀❀❀❀❀❀❀❀❀❀

**الملخص :**

تعتبر الدولة الزيانية واحدة من القوى السياسية التي قامت في بلاد المغرب الأوسط خلال الفترة الممتدة من (633-962هـ/1235-1555م)، وكان لموقعها الجغرافي الوسطي وإمكانياتها الاقتصادية أثر في ازدياد الأطماع فيها من طرف القوى المجاورة ونعني بهم الحفصيين من الشرق والمرينيين من الغرب؛ زد على ذلك تمرد بعض القبائل العربية والبربرية على السلطة المركزية، وفي نهاية عهدها تعرضت لغارات النصارى الأسبان؛ كل هذه الظروف جعلت الدولة الزيانية وعاصمتها تلمسان مهددة في وجودها وأمنها واستقرارها.

لكن وعلى الرغم من الصراع الطويل الذي شهدته الدولة على مرّ تاريخها خاصة ضد المرينيين؛ إلاّ أنّ ذلك لم يمنعها من فرض نفسها سياسيا وعسكريا وحضاريا، وذلك من خلال تضافر جهود مختلف الفعاليات الاجتماعية المنضوية تحت لواء هذه الدولة؛ ومن بينها المرأة التي كان لها حضورا خلال هذه الفترة حسبما تشير إليه بعض مصادر المرحلة؛ على الرغم من أنّ مهمة المرأة الأساسية هي رعاية شؤون الأسرة وتربية الأبناء بيد أنّ هذا لم يمنعها من المساهمة في شتى المجالات الأخرى السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية وغيرها.

والمأمول من هذه الورقة هو تسليط الضوء على دور المرأة في البناء الحضاري للدولة الزيانية، وذلك من خلال الوقوف على إسهاماتها في المجالات الحياتية وبخاصة في المجالين العسكري والسياسي.

**الكلمات المفتاحية** : العهد الزياني، المرأة الزيانية، تلمسان، الدور العسكري، المساهمة في المجال السياسي

**Abstract :**

If we speak about the Zianists empire , we can say many things about this superpower , That emerged in the middel of Megreb country between the period of : (1235-1555 B C/633-962a- A D). This may be going back or pertaining to many factors according to hitorical studies.

First of all , The geographical location that makes it squeezed between two tears , this created offensives and attacks from the Hafsists from the East and the Marrinians from the west in addition to these factors disabedience of few tribes Arabian and Barbarian tribes at the end of its age be confronted with the Spanish people. All these conditions contribute to make the Zianists power menaced about its existence and sedentation.

But although this long conflict that exposed this nation during its histery against the Marrinians never handicapped it and make its assumption in political, military and civilization domains in the yard of Islamic Megreb, these ofcourse according to the great efforts of various sociable efficacies that work under this power among them we find a women that have a great existence and huge role during this period depending on how different studies were mentioned in spite of the fact that the role of women was limitted only on patronaging and educating children and takes care on its family but never handcapped or forbided her to make achievements and contributions in varuons fields, political, military, economical and ideational (intellectual).

What is our objective in this paper is to have a deep look about the great role of women in the Zianist age and its contributions in different domains specially in military and political fields.

**Keywords**: AL ziani era – Woman Zianist – Military role – Contribution in politic field.

**مقـدمــة:**

لقد كشف التاريخ على مدى قرون طويلة عن أدوار متفاوتة قوّة وتأثيرا لعبتها المرأة في شتى أوجه النزاعات العسكرية؛ فقد برزت في العديد من الحروب كقائدة، ومقاتلة أو كمثيرة لحماس المقاتلين، ومشجعة لهم على مواجهة العدو، وداعية إلى البذل والعطاء؛ بجانب تفانيها في أعمال أخرى تتقنها وهي ترافق الجيوش في ساحات القتال، وفي مجال الطبابة والإمداد إلى غير ذلك من المهن التي تتناسب مع طبيعة تكوينها الجسماني والنفسي، كما ساهمن كذلك في المجال الدبلوماسي، وكثيرا ما كانت المرأة طرفا في النزاعات السياسية بين الأمراء فساهمن بما تيسر لهن من إمكانيات مادية ومعنوية.

وقد حتمت ظروف الحرب المستشرية التي شهدتها الدولة الزيانية أن تدخل المرأة في الحرب إلى جانب الرجل، وأن تكون طرفا فاعلا فيها؛ وذلك من خلال اضطلاعها بأدوار مختلفة تنوعت مابين القتال والتحميس والتشجيع والمشاركة في المفاوضات بالإضافة إلى استخدامها في المخابرات والجوسسة؛ زد على ذلك مساهمتها في افتداء الأسرى بما تملكه من مال. وهذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: هل أفصحت لنا المدونة الوسيطية بما فيه الكفاية عن الأدوار العسكرية والسياسية التي اضطلعت بها المرأة في العهد الزياني؟

## أولا: المرأة والحرب وتجليات الحضور

### 1- القتال وإثارة الحماس

على الرغم من أننا لا نمتلك أسماء لبطلات قدنا الجيوش وخضنا المعارك ضدّ أعداء بني زيان على غرار ما حدث في العهد المرابطي؛ حيث تشهد المصادر التاريخية لتلك المرحلة بأن النساء المرابطيات كن يخضن المعارك ويقاتلن في زي الرجال نظرا لما يتمتعن به من الشجاعة والحرية (حميدي، م.2001-2002: 76)، إلاّ أنّ ذلك لا ينفي مشاركة المرأة الزيانية هي الأخرى في الحروب إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة خلال هذه الحقبة؛ وإن كانت النصوص التي أشارت إلى ذلك مقتضبة.

حيث يستفاد مما ذكرته المصادر التاريخية أنّ قادة الجيش الزياني اعتادوا أثناء خروجهم إلى المعارك أن يصطحبوا معهم هوادج تحمل فوق الجمال وبداخلها نساء (مجهول، 2012. 147-148-168/ بلعربي، خ. 2014: 26)، وهو ما يثبت حضورها إلى جانب الرجل إما لغرض الاستئناس بها أو للقتال إلى جانبه إذا دعت الضرورة.

ومن الشواهد التي تثبت لنا حضور المرأة الزيانية في ساحة القتال هو ما حدث عندما هاجم السلطان أبو الحسن المريني (732-749هـ/1331-1348م) مدينة تلمسان في 27 رمضان من سنة 737هـ/1336م (ابن خلدون، ع. 2006: 7-305)، كانت نساء تلمسان تخضن المعارك إلى جانب الرجال خلف الأسوار(فيلالي، ع. 2002: 1-293).

ونظرا للتأثير النفسي العميق الذي تحدثه المرأة في الرجال عملت في ساحات القتال على تشجيع وتحفيز المقاتلين من خلال مختلف العبارات والتلميحات والسلوكات (فيلالي، ع.2002: 1-293)؛ ومن الأمثلة التي نسوقها للبرهنة على هذا الطرح ما حدث في معركة وادي تلاغ ( ابن خلدون، ع.2006: 7/101-102/ ابن أبي زرع، ع.1972: 305) حينما احتدم القتال بين الزيانيين والمرينيين؛ وقد بلغ

ضراوته إلى حد "أنّ النساء برزن في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض"( السلاوي، أ.1955: 3-26/ ابن أبي زرع، ع.1972: 305).

وفي نفس السياق يؤكد صاحب الذخيرة بمشاركة نساء كلا الفريقين ويصف ثيابهن بقوله: "...واصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش في الهوادج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه عليهن الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال..." (مجهول.2012: 147-148) لشحذ الهمم والحث على البذل والعطاء وعدم التراجع والتخاذل.

والجو يرمل في سمـاء فساطـل *** وبنابها ظللا على الفرسان

والسيف دين المضربين كجدول *** في ضفتيه شقائق النعمـان (مجهول، 2012: 148)

وفي خضم الصراع المستمر خاصة مع بني مرين وهو ما ترجمته كثرة الحروب ضدهم نقلت لنا المصادر بعض المواقف حول المرأة وهي تجابه الشدائد والأهوال وتعرض نفسها للخطر في الحرب؛ مثلما حدث أثناء المواجهة الشرسة بين الطرفين عندما اقتربت إحداهن ودنت من مقام أبي الحسن المريني (732-749هـ/1331-1348م)، ورفعت صوتها تنادي بني زيان، وتحثهم على المقاومة والصمود، وفي نفس الوقت كانت تهجو سلطان بني مرين وجنده وتكيل له الشتائم (ابن مرزوق، م.2011: 148).

## 2- المنع والتخفيف

من المواقف الشجاعة التي تحسب لنساء السلاطين الزيانيين في فترة كانت تلمسان معرضة للحصار الطويل في نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي والذي فرضه السلطان أبو يعقوب يوسف المريني؛ وقد استمر أكثر من ثماني سنوات (ابن خلدون، ع.2006: 7-113-115/ الوزان، ح.1983: 2-18)؛ حيث تجمع المصادر التاريخية على أنه أشهر حصار في التاريخ الإسلامي عامة (بوعزيز، ي.(د.ت): 10)، وفي العهد الزياني خاصة، وكان منطلقا لسلسلة من الحصارات التي سيشهدها العهد الزياني لاحقا، وقد تسبب في هلاك أهالي تلمسان حيث ذاقوا الأمرين الجوع والخوف (ابن خلدون، ع.2006: 7-113-114/ التنسي، م.2011: 132) بعد تشديد الخناق عليهم؛ وهو ما عبر عنه ابن خلدون قائلا: " ونالهم من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم" (ابن خلدون، ع. 2006: 7-197).

ومن شدة هول هذا الحصار كان له وقع شديد في نفوس الشعراء ومنهم أبو عبد الله محمد بن خميس (ت708هـ) الذي نظم قصيدة وهو في دار غربته تعتبر مرآة عاكسة لما لاقاه أهالي تلمسان من آلام ومآسي وأضرار وهم تحت الحصار نستعرض بعض الأبيات منها:

لعشرة أعوام عليها تجرمـت *** إذا ما مضى قيظ بها جاء أهـراء
يطنب فيها عابثون وحـرب *** ويرحل عنها قاطنـون وأحـي
كأن رماح الناعبين لملكهـا *** قداح وأموال المنـازل أبـداء
فلا تبغين فيها مناخا لراكب *** فقد قلصت منها ضلال وأفياء (ابن الخطيب، ل.1956: 2-539).

لكن رغم هذه الظروف لم تكن نساء البلاط على هامش الأحداث بل كان لهن موقف شجاع من خلال الدعوة إلى مواصلة المقاومة حتى الموت أو النصر؛ فأرسلن الخادمة "دعد" قهرمانة القصر لتقول للسلطان أبي زيان (703-707هـ/1303-1307م) " تقول لكم

حضايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا وللبقاء، وقد أُحيط بكم، وأسف لالتهامكم عدوّكم، ولم يبق إلاّ فواق بكيئة لمصارعكم؟ فأريحونا من معرّة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم، وقرّبونا إلى مهالكنا. فالحياة في الذل عذاب، والوجود بعدكم عدم..." (ابن خلدون، ع. 2006: 7-114). كما يستفاد أيضا من نص هذا الخطاب أنّ هؤلاء الحرائر ورغم هذا الظرف الصعب الذي عشناه لم يؤثر على حالتهن النفسية نظرا لما تميزن به من الشجاعة وقوة الشخصية في مقاومة الحصار؛ بدليل أنهن اخترن الموت على أن يقعن أسيرات في يد العدو، والتعرض للسبي والمذلة.

ومن النماذج الأخرى التي تعكس دور المرأة في التدخل للتخفيف من آثار هذا الحصار؛ وإن لم تكن من بني زيان وإنما هي إحدى نساء بني مرين، لكن ومن خلال تصرفها النبيل وموقفها الإنساني تجاه أهالي تلمسان ارتأيت إدراجها ضمن النساء اللائي كان لهن دور متميز، والمتمثل في شفاعتها لدى ابنها لوقف هذا الحصار لما لحقهم جرائه من مآسي وآلام وإن لم تنجح في ذلك؛ وفي هذا الصدد يروي ابن مرزوق على لسان السلطان أبي الحسن قائلا: "فدخلت عليا يوما فكلمتني في شأن أهل تلمسان وإعفائهم من الحصار...قال: فقلت لها إنّ الشّرع أمرني بهذا، وبينت لها ذلك بطريق شرعي، فحينئذ أمسكت" (ابن مرزوق، م. 2011: 123).

## ثانيا: المرأة والسياسة ومواقف المشاركة

### 1- المشاركة في اتخاذ القرار السياسي

على الرغم من أنّ المرأة كانت من أكثر المتضررين في الحرب، فإننا لانعدم بعض النصوص التي تثبت أنها قامت بأدوار هامة، وحركت من خلف الستار أمهات القضايا السياسية (بوتشيش، إ.1993: 48) كأن تتولى رئاسة قبيلتها (ابن خلدون، ع.2006: 6-153) أو تشارك في المفاوضات من أجل إيقاف الحرب أو رفع الضرر والمعاناة على الأهالي.

ومن المع أسماء النساء الزيانيات اللواتي كان لهن دور فردي في مرحلة تعرضت فيها تلمسان للغزو الحفصي هي أم السلطان يغمراسن(633-681هـ/1235-1282م) (ابن خلدون، ي.2011: 1-225-229) المعروفة ب "سوط النساء"؛ وبحكم مركزها أم السلطان كانت لها تجارب في شؤون السياسة، وذلك من خلال مشاركتها على رأس الوفد الزياني للتفاوض مع العاهل أبو زكرياء الحفصي(625-647هـ/1228-1249م) (ابن الشماع، م.1948: 59) نيابة عن ابنها الذي أخرج من تلمسان سنة 640هـ/1242م (التنسي، م.2011: 117) بعد استيلاء الجيش الحفصي (ابن القنفذ، أ. 2015: 19) بقيادة أبي زكرياء عليها (الحميري، م.1984: 136)؛ وقد تمكنت هذه الأخيرة من إنقاذ عرش ابنها من خلال توقيع معاهدة صلح مع الحفصيين يعود بمقتضاها ابنها يغمراسن إلى عرشه، مقابل دفع إتاوة مالية قدرها مائة ألف دينار (ابن خلدون، ي.2011: 1-227)، وأن يذكر اسمه على المنابر في خطب الجمعة والأعياد (بن شاوش، ر.2011: 1-69).

ومن خلال هذا التصرف يبدو ذكاء هذه المرأة وحزمها وحرصها على تدعيم وتثبيت السلطة لابنها، وهو ما أثار إعجاب السلطان أبو زكريا الحفصي بها "فأكرم موصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها" (الزركشي، م.(د.ت): 29/ ابن خلدون، ع.2006: 7-96)؛ وهذه هي الشهادة الوحيدة التي نقلتها لنا المصادر التاريخية الخاصة بالعهد الزياني حيث لم يشهد بمثله لأمهات السلاطين اللائي جئنا بعدها بترؤس مجالس المفاوضات.

## 2- المشاركة في نظام الاستخبارات والجوسسة

بما أنّ نظام الاستخبارات والتجسس كان متداولا عند معظم الدول الإسلامية في تلك الفترة فإنّ الدولة الزيانية لم تشذ هي الأخرى عن هذه القاعدة؛ وكان لها حظ في هذا المجال نظرا لما كان يحيط بها من مخاطر، ولأنّ الحصول على المعلومات والاستخبارات حول العدو يلعب دورا حيويا في مجال الاستقرار والأمن لكل دولة (أبو حمو، م.2012: 171-172).

والتجسس معناه جمع المعلومات الحربية خلسة عن العدو بغية استخدامها في قتاله بعدئذ؛ وقد عرف العرب القدامى التجسس في حروبهم منذ عهد الجاهلية وسموه "إذكاء العيون"، وكانوا يطلقون على الجواسيس أنفسهم اسم "العيون" (الهندي، إ.1993: 188).

ونظرا لأهمية هذه الظاهرة فقد جعلها السلطان أبو حمو الثاني من إحدى الوصايا التي أوصى بها ولي عهده أبو تاشفين في كتابه واسطةالسلوك حيث أوصاه بالاستعانة بالجواسيس في الظروف العصيبة والحرجة ضد العدو القوي وفي هذا الصدد يقول " اعلم يابني أنه إذا كان عدوك أقوى منك فيجب عليك أن تدفعه بأنواع المحاولات...فمن رأيك الذي يندفع به عدوك ويرجع به سموك أن تكون لك جواسيس في بلاد العدو ويرقبون أفعاله على البعد والدنو، وعيون تلاحظ أعماله، وتشاهد أحواله، لا يفارقونه ليلا ولا نهارا، يسألون عن أحوال العدو سرا وجهرا، فكلما رام هذا العدو خداعا وأظهر فيك أطماعا جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنه في بلاده من أسراره، فتأخذ في قوام مدافعته إما بحيلتك أو بمصانعتك، وذلك بقدر حزمك وجدك وسياستك وكيدك..." ( أبو حمو، م.2012: 171-172).

حتمت الظروف السياسية والأمنية التي مرت بها الدولة الزيانية إلى تجنيد النساء، وإدماجهن في شبكة الاستخبارات والتجسس لصالح الدولة ضد أعدائهم خاصة بني مرين الذين لا يتهاونون في اغتنام أي فرصة لغزو بلاد المغرب الأوسط وضمه إلى ممتلكاتهم، ومن النساء اللائي استخدمن في هذا المجال الجواري غير المسلمات وهن أسيرات نصرانيات تم ضمهنّ إلى نساء الحريم (برونشفيك، ر.1988: 1-480)، وكن يخدمن في البلاط الزياني (الوزان، ح.1983: 2-22).

وحسبنا في ذلك ما قام به السلطان أبو سعيد عثمان (681-703هـ/1282-1303م) حينما قام بإهداء جارية وسيمة رومية (ابن مرزوق، م. 2008: 285)، إلى نظيره أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني بعد أن درّبها على أسلوب الكتابة السرية، وعلى التجسس والتقاط الأخبار، وزوّدها بالورق الخاص بذلك (ابن مرزوق، م.2008: 85)؛ وبالتالي يكون أبا سعيد عثمان[1] قد اخترق جدار أسرار البلاط المريني من خلال تلك المعلومات الهامة التي كانت تبعثها هذه الجارية حول البلاط وخططه ونواياه، واستعداداته وقوته العسكرية؛ وغيرها من المعلومات التي تساعد الخصم (فيلالي، ع.2002: 1-25).

وقد كانت هذه الجارية سببا في نكبة أسرة الوزير أبو سعيد عثمان بن عامر الذي كان يتولى منصب كاتب الدولة وحاجبها؛ وذلك نتيجة ما قام به ابنه الخطيب (ابن مرزوق، م. 2008: 284) من تسريب المعلومات والأسرار الخاصة بالبلاط الزياني إلى سلطان بني مرين؛ حينما كان سفيرا لديه ضمن الوفد الرسمي الذي بعثه السلطان يغمراسن برآسة الشيخ الفقيه أبو إسحاق بن يخلف التنسي (ت680هـ/1281م) (ابن مريم، م.1986: 67-68/ التنبكتي، أ.2013: 23-33-34/ نويهض، ع.1980: 84-85) من أجل

عقد صلح بين السلطان أبي عثمان بن يغمراسن ونظيره أبي يعقوب المريني،[2] وكذا تعزيز الروابط الأخوية والعلاقات الدبلوماسية بين البلدين (فيلالي، ع.2002: 25).

وعندما كان الرسول الخطيب منفردا مع الأمير المريني يفشي له بأسرار الدولة كانت هذه الجارية تقف خلف الستار وتسمع ما يدور من حديث بينهما؛ فكتبت بذلك إلى السلطان أبي سعيد عثمان (ابن مرزوق، م.2008: 285)، وبعد عودة الوفد إلى تلمسان أمر السلطان عثمان بقتل أسرة الخطيب ووالده؛ فقتلوا قتلا شنيعا وصودرت أموالهم وسبيت حريمهم (ابن مرزوق، م.2008: 285).

## ثالثا- المصاهرات السياسية، الأطراف والأسباب

ونشير بالذكر إلى أدوار أخرى احتفظ بها التاريخ ساهمت فيها المرأة في المجالين السياسي والعسكري على غرار مشاركتها في دواليب السلطة أو خروجها جنبا إلى جنب مع الرجل إلى ساحات القتال كمثيرة للحماس أو ما كانت تفعله في منع نشوب الحرب واستيعاب نتائجها؛ ومن ذلك الزج بها في مصاهرات ساسية وقبولها الزواج ولو مكرهة من الطرف الغازي أو المهدد بالغزو، وهكذا فالتاريخ الزياني يسجل حالات لمصاهرات بهدف لجم الصراع والتناحر الذي كان ينشب بين الفينة والأخرى بين بني زيان وأعدائهم.

### 1- مصاهرة بين السلطان يغمراسن والسلطان أبي إسحاق الحفصي

لقد حرص السلطان يغمراسن على تعزيز علاقاته وربط صلة وثيقة بالسلطان أبي إسحاق الحفصي تفاديا لأي حرب محتملة؛ وأكد ذلك بالمصاهرة فخطب أبنته لولده وولي عهده أبي سعيد عثمان سنة 681هـ (ابن خلدون، ي.2011: 1-229/ ابن خلدون، ع.2006: 7-107)، وهي التي ستنجب له فيما بعد سلطانين من سلاطين بني زيان وهما أبو زيان محمد (703-707هـ/1303-1307م) وأبو حمو موسى الأول (708-718هـ/1308-1318م)؛ فأرسل للإتيان بها ولده أبا عامر (ابن خلدون، ي.2011: 1-207/ التنسي، م. 2011: 128) وقد حرص السلطان يغمراسن الذي جاوز السبعين من عمره على الانتقال بنفسه لاستقبال الوفد المصاحب للعروسة حفاية بها وإرضاء لأبيها (ابن خلدون، ي.2011: 1-229/ التنسي، م.2011: 128/ برونشفيك، ر. 1988: 1-115)؛ فلقيهم بمليانة لكن الأجل المحتوم أدركه قافلا برهيو من واد الشلف فتوفي هناك سنة 681هـ (ابن خلدون، ي.2011: 1-229/ التنسي، م.2011: 128).

ومن نتائج هذه المصاهرة نقص حدّة التوتر التي كانت قائمة بين الطرفين؛ وذلك بشهادة أحد المؤرخين الذي يتحدث عن خجل السلطان عثمان من التوسع شرقا بسبب علاقة المصاهرة والنسب بينه وبين الحفصيين (برونشفيك، ر.1988: 134/1).

### 2- مصاهرة بين السلطان أبي حمو ووالي بجاية

ومن المصاهرات التي كان لها الأثر الطيب على وضع حد للحملات المتكررة التي شنها السلطان أبي حمو موسى الثاني(760-791هـ/1359-1389م) على بجاية سنة 765هـ وحصارها بهدف إخضاعها، وأمام عجز صاحب بجاية المولى أبو عبد الله الحفصي عن المقاومة والدفاع لأنه تعرض في نفس الوقت إلى هجمات عسكرية من قبل ابن عمه أبي العباس صاحب قسنطينة الذي هزمه مرتين (ابن

خلدون، ع.2005: 94-95/ ابن خلدون، ع.2006: 7-153-154)، فصعب عليه الأمر في إدارة الجبهتين الشرقية والغربية، فآثر أن يغير موقفه إزاء أحد الجانبين يستعين عليه على مقاومة الآخر، فعمل على تحسين علاقاته مع أبو حمو بإيجاد صيغة للتفاهم (خلفات، م.2011: 94) فعرض عليه التنازل عن تدلس ومصاهرته في ابنته، وتم ذلك سنة 767هـ/1368م (ابن خلدون، ع.2005: 97/ التنسي، م.2011: 144) مقابل الهدنة والصلح؛ ويقول ابن خلدون في هذا الصدد "فأوفد رسله على السلطان أبي حمّو صاحب تلمسان في المهادنة ... وعقد معه السلم، وأصهر إليه في ابنته، فأجابه وزفّها إليه؛ فتلقاها قبيله ووزرائه بآخر عملهم من حدود بجاية..."(ابن خلدون، ع.2006: 7-153).

## 3- مصاهرة بين السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي والسلطان أبي عبد الله أحمد المتوكل

كان للمصاهرة التي أبرمت بين السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1488م) مع السلطان الزياني أبو عبد الله أحمد المتوكل (866-873هـ/1462-1468م) الأثر الكبير لوضع حد لنهاية سلسلة الهجمات التي كان يشنها الأمير الحفصي بين الفينة والأخرى على تلمسان لتأديب سلاطينها الذين كانوا يعلنون التمرد في فترة كانت تلمسان خاضعة للحفصيين؛ بعد أن تمكن أبو عمرو عثمان من الاستيلاء عليها سنة 866هـ/1461م (الزركشي، م.(د.ت): 156-157).

وإثر الهجوم الأخير الذي شنه الأمير الحفصي بعث إليه المتوكل أشياخ البلد يعرضون عليه العفو والصلح، وكتبوا إليه بيعة سلطانهم والولاء له وتزويج ابنته البكر لحفيده أبي زكريا يحي بن مسعود (الزركشي، م.(د.ت): 158)؛ فقبل ذلك وعفا عنه وكتب له بخط يده نصا يقول فيه: "شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حولة ولا قوة إلاّ بالله" (الزركشي، م. (د.ت): 158).

وفي المقابل نشهد حالة أخرى لمصاهرة ذات أغراض حربية لها دور سلبي على الوضع الأمني لدولة بني عبد الواد؛ وهو ما تم بين الطرفين المريني والحفصي في ظروف اقتضت عقد تحالف بينهما وتوحيد الجهود من أجل تأديب السلطان أبي تاشفين الأول(718-738هـ/1318-1337م) وإخضاع تلمسان؛ وقد تأكدت هذه المصاهرة التي تمت بين الأمير أبي سعيد المريني ونظيره أبي يحي الحفصي سنة 731هـ (الزركشي، م.(د.ت): 68/ ابن خلدون، ع.2006: 7-298-299) بعقد قران فاطمة شقيقة أبي زكريا بابنه أبي الحسن.

**خاتمة:** في إطار العرض السابق يمكن للدراسة أن تخلص للنتائج التالية:

أولا: إنّ الظروف السياسية التي مرت بها الدولة الزيانية وما صاحبها من حروب وصراعات خارجية وداخلية خاصة فترة القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين الذين شهدا أكثرها وأعنفها؛ تمكنت خلالها المرأة من تسجيل حضورها السياسي والعسكري في حين لا نكاد نجد لها دورا في أواخر العهد رغم أن هذه المرحلة هي الأخرى لم تخلوا من الحروب والصراعات.

ثانيا: على الرغم من أنّ المرأة في العهد الزياني استطاعت أن تفرض نفسها من خلال الأدوار التي قامت بها؛ لكنها لم تشارك في العمل الدبلوماسي حيث نلاحظ غيابها تماما في السفارات والمراسلات الرسمية المتبادلة بين ملوك الدول الثلاثة، والتي كان من شأنها تخفيف حدّة الصراع القائم بين هاته الدول.

ثالثا: ما رشّح من نصوص حول تداعيات الحرب على المرأة في العهد الزياني تشير إلى أن دور المرأة في الحرب كضحية (منفعلة) أكثر من دورها كمشاركة فيها (فاعلة) رغم تعدد المهام التي قامت بها، إذ أنه بسبب هذه المهام سقطت منهن قتلى وجرحى وأسيرات حرب.

**ملحق: جدول يبين حالات المصاهرة بين سلاطين الدولة الزيانية مع نظرائهم من بني مرين وبني حفص**

| السنة | طرفي المصاهرة | | المصدر |
|---|---|---|---|
| 681هـ/1232 | الأمير العبد الواد أبو سعيد عثمان بن يغمراسن | بنت السلطان الحفصي أبي إسحاق ابراهيم | -بغية الرواد، 207/1 – العبر، 107/7<br>-نظم الدر، ص128 |
| 765هـ/1364م | السلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني | إبنة صاحب بجاية المولي أبو عبد الله الحفصي | بغية الرواد، 159/2<br>العبر، 153/7<br>رحلة ابن خلدون، ص97 |
| 866هـ/1461م | ابنة الأمير الزياني أبو عبد الله محمد المتوكل | حفيدة الأمير الحفصي أبو عمرو عثمان | -الزركشي، ص158 |
| 731هـ/1331م | الأمير المريني أبي الحسن | الأميرة فاطمة إبنة الأمير أبي يحي الحفصي | -العبر، 298/7-299<br>-الاستقصا، 117/3<br>-الزركشي، ص68<br>نظم الدر، 144-145. |

**شروحات وتعليقات:**

1/ يشير ابن العربي في كتابه أحكام القرآن في سياق حديثه حول فتوى جواز أو عدم جواز قتل المرأة المشاركة في الحرب إلى تعدد أدوارها ومدى تأثيرها في الحرب وذلك في قوله: "وللمرأة آثار عظيمة في القتال؛ منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، فقد كنّ يخرجن ناشرات شعورهنّ، نادبات، مثيرات للثأر، معيّرات بالفرار، وذلك يُبيح قتلهنَّ"(ابن العربي، ب. (د.ت): 149).

2/ أثبتت وقائع التاريخ أنه في حالة وجود نقص في عدد الرجال المؤهلين للقتال خاصة في حالات الطوارئ؛ تزداد المشاركة الرسمية للمرأة في الأعمال العسكرية كرد فعل للحاجة إلى المقاتلين في الحرب؛ لكن وأمام ندرة نصوص تاريخية تثبت المشاركة الفعلية للمرأة الزيانية بكثافة فإني أعتقد بأن حضورها كان لغرض الاستئناس بها، وإثارة الحماس وهو ما لمسناه في العديد من النصوص التاريخية، وفي المقابل أريد أن أنوه إلى أنّ إستراتيجية سلاطين بني زيان في حالات الطوارئ والحاجة إلى مزيد من المقاتلين في حروبهم المتكررة لم يطبقوا هذه القاعدة؛ وإنما كانوا يلجئون إلى الاستعانة بالقبائل العربية والبربرية لتعويض ذلك النقص في عدد الرجال المحاربين حيث يقومون بتأجيرهم مدة العمليات العسكرية.

3/ وقعت هذه المعركة(واد تلاغ) بالضبط يوم الاثنين 12 جمادى الثانية 666هـ/28 فبراير 1268م، وكان سببها تحالف السلطان يغمراسن الزياني مع الأمير الموحدي أبي دبوس بعد الحصار المفروض عليه في عاصمته مراكش من طرف أبو يوسف يعقوب المريني، وكانت هذه الحرب من أعنف ما وقع بين القبيلين انتهت بهزيمة يغمراسن بن زيان الذي فرّ نحو تلمسان مع من بقي حيا من فلول جيشه (ابن خلدون، ع. 2006: 7-101-102).

4/ تعرضت تلمسان للحصار عدة مرات من طرف المرينيين لكن أطولها بلغ ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وكان من طرف السلطان المريني يوسف بن يعقوب الذي شن خمس حملات عسكرية ضد الدولة الزيانية خلال سنوات 689هـ- 695هـ -696هـ -697هـ، وآخر حملة كانت سنة 698هـ حيث قرر حصارها وأن لا يرحل عنها حتى يفتحها أو يموت دون ذلك، واستمر حصاره للمدينة من 698هـ إلى غاية 706هـ وهي سنة وفاته، وبموته انتهى الحصار وكفى الله العناء على من بقي من أهل تلمسان وقد تحدثت العديد من المصادر عن الآثار الوخيمة لهذا الحصار على سكان تلمسان حيث أودى بحياة مائة وعشرون ألفا قتلا وجوعا.

5/ نظرا لشدة هذا الحصار وطول أمده هناك من الباحثين من شبّهه بحصار طروادة الشهير؛ لكن ما يختلف بينهما هو النهاية؛ حيث انتهى حصار طروادة بسقوط المدينة بينما ظلت مدينة تلمسان بأهلها صامدة حتى مات السلطان يعقوب المريني( بوعزيز، ي.(د.ت): 10).

6/ ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام، أبو إسحاق التنسي المطماطي عالم مالكي من أهل تنس انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب؛ استقدمه السلطان يغمراسن إلى تلمسان روى على ناصر الدين المشدالي وآخرون؛ رحل إلى المشرق للاستزادة فزار مصر والشام والحجاز ثم عاد واستقر بتلمسان ودرّس بها إلى أن مات، له شرح كبير على كتاب "التلقين" في عشرة أسفار، وله "تقييد" على الإرشاد ( ابن مريم، م.1986: 67-68/ التنبكتي، أ.2013: 32-33-34/ نويهض، ع.1980: 84-85).

7/ يجب التمييز بين المصاهرة باعتبارها علاقة زوجية والقرابة كعلاقة دموية " القرابة هي علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية الحقيقية أو الخيالية أو المصطنعة ولا يعني اصطلاح القرابة في الأنثروبولوجيا علاقات العائلة والزواج فقط وإنما يعني أيضا المصاهرة. لكن العلاقة هي قرابة دموية والمصاهرة هي علاقة زواجية فعلاقة الأب بابنه هي علاقة القرابة بينهما، وعلاقة الزوج بزوجته هي علاقة مصاهرة". أنظر ( دينكن، م.1981: 130-131).

## قائمة المصادر:

1- التنسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل. (2011). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود آغا بوعياد. الجزائر: موفم للنشر.

2-الحميري، محمد عبد المنعم. (1984). الروض المعطار في خبر الأقطار، (ط2). تحقيق: إحسان عباس. بيروت: منشورات مكتبة لبنان.

3-أبو حمو، موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي يغمراسن الزياني. (2012). واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق: محمود بوترعة، الجزائر: دار الشيماء للنشر والتوزيع.

4-ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن. (2006). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (ط3). بيروت: دار الكتب العلمية.

5-—————— ( 2005). التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي. بيروت: دار الكتب العلمية.

6-ابن الخطيب، لسان الدين. (1956). كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان. القاهرة: دار المعارف.

7-ابن أبي زرع، علي الفاسي. (1972). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

8-الزركشي، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم. (د.ت). تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور. تونس: منشورات المكتبة العتيقة.

9-السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري. (1955). الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب.

10-ابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد. (1984). الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية. تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري. تونس: الدار العربية للكتاب.

11-ابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله. (د.ت). أحكام القرآن، مراجعة: محمد عبد القادر عطا، القسم الأول، بيروت: دار الكتب العلمية.

12-ابن القنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني. (2015). الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. إعداد: عبد الرحمن حمّاد الكتبي. الجزائر: منشورات وزارة الثقافة.

13- ابن مرزوق، أبي عبد الله محمد التلمساني. (2011). المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن. تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا. الجزائر: موفم للنشر.

14-—————————— (2008). المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، (ط1). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

15–ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني. (1986). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر: محمد بن أبي شنب. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

16–مجهول، (2012). زهر البستان في دولة بني زيان (760–764هـ/1359–1363م)، تقديم: محمد بم محمد باغلي. (ط2). الجزائر: الأصالة للنشر والتوزيع.

17–مؤلف مجهول. (2012). الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية. مراجعة: الربعي بن سلامة والسعيد بحري. قسنطينة: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع.

18–الوزان، الحسن بن محمد. (1983). وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

## المراجع:

– بوتشيش، إبراهيم القادري. (1993). المغرب والأندلس في عصر المرابطين –المجتمع– الذهنيات– الأولياء. (ط1). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

– برونشفيك، روبار. (1988). تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية 15م. تعريب: حمادي الساحلي، (ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

– خلفات، مفتاح. (2011). قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط مابين القرنين (6–9هـ/12–15م) دراسة في دورها السياسي والحضاري. تيزي وزو: دار الأمل للنشر والتوزيع.

– دينكن، ميتشيل. (1981). معجم علم الاجتماع. ترجمة: إحسان محمد الحسن، (ط1). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

– بن شاوش، رمضان الحاج محمد. (2011). باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

– فيلالي، عبد العزيز. (2002). تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمراني، اجتماعية، ثقافية). الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.

– نويهض، عادل. (1980). معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. (ط2). لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.

– الهندي، إحسان. (1993). أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام. (ط1). دمشق: دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع.

**الرسائل الجامعية:**

– حميدي، مليكة. ( 2001–2002). المرأة المغربية في عهد المرابطين (448–541هـ/1056–1146م. مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، الجزائر.

– بكاي، هوارية. (2008–2008). **العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا**. مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان.

**الدوريات والمقالات:**

– بلعربي، خالد. (2014). النظام العسكري بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني– ضمن كتاب ورقات زيانية– (13–43).

– بوعزيز، يحي. (د.ت). "المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (1236–1554م)". مجلة الأصالة، ع26، (3–29).